الفردوسي وشاهنامته

وعظيم تأثيره في التاريخ واللغة والأدب الفارسي

رأيت ان اتقدم بنصيبي الى قراء العربية وأدبائها الكرام من الافضاء ببيان عن الشاعر الايراني العظيم الفردوسي وشاهنامته في الوقت الذي تقام فيه الحفلات وتعقد المؤتمرات الادبية ويحتفل العلم والادب والانسانية بمرور الف عام على ذكراه القدسية . وارى قبل الخوض في بيان عن ذلك الشاعر الخالد وقبل مواجهتنا الموضوع ان أعرّف بالقارىء قليلاً في عوالم اللغة الفارسية وآدابها وتاريخها . ان اللغة الفارسية الحاضرة ناشئة الى حد ما عن اللغة البهلوية التي ترجع الى اللسان الفارسي القديم المسمى (آريا) او الفارسي الباستاني ، وقد انشعبت هذه من اللغة (الآرية) الأصلية ، ولذلك نجد الدولة الفارسية تعرف باسم (ايران) اشتقاقاً من الكلمة الاصلية (آريان) حيث ان لفظة « يان » هي علامة الجمع بمثابة الياء والنون في جموع اللغة العربية ، اما لفظ فارس فهو محرف في التعريب عن كلمة (پارس) الباقية بحالتها الراهنة في بعض اللغات الآرية الحاضرة . اما في اللغة الفرنسية فيسمونها (پرسان) وهي كلمة مختلفة عن كلمة پارسيان وكذا يسمى پرس المخففة عن پارس

وقد ظلت اللغة البهلوية محافظة على صبغتها في الخط والقراءة الى ما بعد الاسلام بقرنين او ثلاثة قرون وعنها نقل مابقي من تاريخ الايرانيين وآدابها الى اللغة العربية ثم اصبحت بعد ذلك الى القرن الخامس لغة دينية عند الزردشتيين مقصورة على جماعة الموبذ والموبذان كهنة زردشت وكذلك من تعلمها من علماء الاسلام كابن سينا والبيروني وابن المقفع وغيرهم وبذلك عاشت هذه اللغة بعيدة عن متناول العامة. اما اسلوب طريقة الخط في هذه اللغة فقد بقي الى اواخر القرن الأول بعد الاسلام وتشهد بذلك مسكوكات من النقود كان التعامل جارياً بها عند العرب منذ الجاهلية وقد نقلت كتابة الدواوين بها من الفارسية في عصر عبد الملك الى العربية واهمل الخط البهلوي وشغل مكانه الخط الفارسي الحاضر الا ان اللغة الفارسية بوجه عام بقيت في ميدان الخطابة والكلام الى ان عادت ثانياً ميداناً للعلم والادب بعد الاسلام

﴿ الشعر الفارسي ﴾ الشعر الفارسي قديم على ما يظهر حيث كانت الموسيقى فنّاً تلازم الحضارة الايرانية في سلمها وفي حروبها ومعلوم ان للموسيقى تلازم الشعر وتلازمها في سائر خطواتها فلا بد ان يكون لهم مقطوعات تساير الغاتها وكلمات موزونة تجاري اوزانها وفي عهد الساسانيين كما ذكر في تاريخ الادب الايراني لبعض الادباء المعاصرين كان للموسيقى وزير خاص ووجد في ذلك العصر أعاظم المغنين وفي مقدمتهم باربد نكيسا بامشاد فان اردشير مؤسس الدولة الساسانية قسم رجال الدولة الى ثلاث طبقات ممتازة كان الموسيقيون إحداها حتى بلغت عنايته بذلك مما حدثوا عن تقسيم النغمات الموسيقية

على ايام الاسابيع وعلى فصول السنة واواخر الشهور واختلاف الليل والنهار وبقيت بعض المصطلحات الموسيقية الى مابعد الاسلام في كتب الموسيقى والادب واللغة وجرت بذلك السنة الشعراء في الاسلام ومن قرأ رسالة الفارابي في الموسيقى والمحاسن والاضداد للجاحظ وجد بعض بمصطلحات موسيقية فارسية قديمة مثل زيرافكند نهفت زير كشيدم تورورز ومن هذا الرقي الموسيقي على اختلاف العصور يتبين لنا ان الشعر كان ملازماً للموسيقى وان لم تكن له الاوزان الخاصة الجارية ولكن على كل حال كان يرتكز على اوزان اخرى يمكن تطبيقها على النغمات الموسيقية التي كان لها القدم الراسخة في مرافق الدولة الايرانية ومما يدل على ثبوت الشعر الفارسي ما نقل في شرح ادب الكاتب لبطليوسي ان طليحة الاسدي من اشراف العرب اتى الى بلاط كسرى خسرو پرويز في مهرجان العيد فرأى مغنياً ينشد اشعاراً عربية فلما ترجمت لكسرى لم تزقه واخذ مغني فارسي يرجع غناءه فطرب الملك وتناول الراح. ومما يدل على علم الايرانيين بالشعر واهتمامهم به ماروى ابن قتيبة في كتاب الشعراء ان كسرى انوشروان سمع بأن الاعشى ينشد هذا البيت

ارقت وما هذا السهاد المؤرق وما لي من سقم وما لي معشق

فقال انوشروان ، ما يقول هذا العربي ؟ ورغب في ترجمة البيت فلما فهم قال اذا لم يكن عاشقاً ولا مريضاً مع سهاده فلا بد ان يكون لصّاً

وقد بيّن ابن المقفع في مقدمة كليلة ودمنة ان في اليوم الذي جاء فيه برزويه بكليلة ودمنة امر باقامة حفل احتفاء ببرزويه وكتابه وكلف الشعراء والخطباء ان يتحدثوا عن مزايا اليوم وفي هذا دلالة على ان الشعر كان ذائعاً بين الايرانيين قبل الاسلام. اما مبدأ حياة الشعر في العصر الاسلامي فقد اختلفت الآراء في اول شاعر فقيل انهُ أبو العباس المروزي وقيل انهُ ابو حفص احوص السعدي السمرقندي وقيل انهُ حنظله باد غيسي وليس في الوقت ولا موضوع المقال متسع لتحقيق ذلك

ومما لا خلاف عليه ان اول شاعر بكل معنى هذه الكلمة ، والذي رُويت وحفظت عنهُ اشعار جيدة بقيت في عيون القصائد هو الرودكي الذي نظم كليلة ودمنة وكان مغنياً بارعاً مكثراً من نظم الشعر وكان كفيف البصر ولم يمض على بدء الشعر الفارسي الا بضع قرون حتى نبغ شعراء ضربوا اعظم الامثال في مضمار التخيل والتفكير وفي براعة الاداء والتصوير وخلدوا في صحيفة الادب الفارسي قصائدهم ومقطوعاتهم التي شهد العالم بعظمتها وسمو مكانتها وفي مقدمتهم الشاعر العظيم حكيم ابو القاسم الفردوسي الذي كان من اكبر العوامل في نهضة اللغة الفارسية وآدابها الحديثة واسترداد مكانتها العالمية بين الآداب واللغات الحية

﴿ الشاهنامه وعظيم تأثيرها في اللغة والآداب الفارسية ﴾ الشاهنامه هي المرجع المهم في التاريخ والأدب الفارسي لجميع الأدباء والمؤرخين ، مرجعٌ سهّل على المتأخرين سبيل الشعر وهو كنز اللغة الفارسية وقاموسها الرحيب فليس هو كتاباً تاريخيًّا يشتمل على ذكر الملوك

والابطال وقضايا ايران وحوادثها الماضية فحسب بل هو محتوٍ على اغلب فنون الادب ففيه حكمة وغزل واخلاق، كما انه فيه قصص الحروب والابطال وجميع نواحي العواطف الانسانية من حب وهيام

على ان ملحمة الشاهنامة لا تكتفي من الحوادث بسردها فقط ولكنها تربط العلل بمعلولاتها والآثار بمؤثراتها وتشير الى اسباب الطبيعة في سائر القضايا وتتحدث عن الخصائص الاجتماعية ولا تكاد تبدأ بقصة او تختمها حتى تتوجها بالعبرة وتحذر من الاغترار بالدنيا والركون اليها وتقرنها بما يلائمها من النصائح المناسبة لوقائعها المشاكلة لحوادثها وكل هذه القصص ذات الاحداث الرائعة والقضايا المتسلسلة والحقائق العالية والافكار الرحيبة يجليها في اوضح مجاريها ويخرجها في اصدق صورها فتجد القصة مكتوبة منظومة وتحس بها كأنها واقعة مشاهدة تراها رأي العين وتتحقق من مناظرها وابطالها كأنك تعيش معهم وتحيا بينهم في اسلوب فريد ايضاً تتعشقهُ كل نفس وتستمرئه كل ذوق وهذا ماجعل الشاهنامة نشيد الخاصة والعامة على السواء واتخذ أنيس المحافل فهو يبعث كوامن العواطف والاحساسات ويحمل النفس على التحلي بالشجاعة وركوب الاخطار وقوة العزيمة والاصطبار على نوائب الايام

وقد اجمع علماء الشرق والغرب على رأي واحد تجاه الشاهنامه هو اعتبارها أدباً عالميًّا وشعراً في اسمى طبقة لم يتوجه اليه احد بنقد ينال من سمائها عدا البروفسور براون في مؤلفه فقد ذكر في مؤلفه في الادب الفارسي ان الشاهنامه ليست في المستوى العظيم من الشعر ثم انهُ لا يجحد مكانتها في اللغة والادب والتاريخ . على ان مستر براون هو الذي انفرد بهذا الشذوذ وهذا التفرد الغريب في نقده ، ولكن اجماع علماء الامم وادباء العالم مع تباين الاذواق والنزعات على تقديرها والحفاوة بها هو اعظم ردٍّ على نقد المستر براون واكبر برهان على القيمة التي حازها الفردوسي وليس بضائره بعد ذلك شذوذ فرد وانفراد رأي. على ان كل شعب اعلم بأدبه وخصائص الشعر فيه واقدر على التمييز بين الغث والثمين فان ألحانه الفنية تقتضي امتزاجاً تامًّا بالبيئة التي صدر عنها ذلك الفن ونشأت فيها تلك الصور الادبية وليس من شك في ان مثل براون يعوزه الاتصال الكافي بالفرس من جهات عديدة . فمع احترام رأيهِ فان هذا الرأي خارج عن الصواب ولاسيما اذا لاحظنا ان شعراء عديدين حاولوا تقليد الفردوسي ونظموا الحوادث والملاحم فما بلغوا شأوه ولانفروا من محاكاته بطائر ونحن لا ندعي ان كل بيت في الشاهنامه هو بيت القصيد فان سفراً جامعاً مثل هذا الكتاب فيما حوى من حوادث وقصص واسعة الاطراف لا يخلو ان تكون بعض اشعاره خيراً من بعض واعتراف الشعراء انفسهم وهم اولى الناس بتقدير فنهم ، فيهِ غناء عن الدفاع عن مقام حرمتها

وهذه ترجمة بعض نوابغ الشعراء في حق الفردوسي . يقول حكيم الانوري ما ترجمتهُ :

مرحباً بشاعر الفردوسي في مقامه النوراني الرفيع فما كان الفردوسي استاذاً ونحن تلاميذه بل كان اله الشعر ونحن عبيده . ثم يقول ان يعني : ان الطابع الذي نقشهُ الفردوسي على دنانير الكلام لم يتح لشاعر فارسي انهُ كلام هبط من الثريا الى الثرى فصاعد الفردوسي ورفعهُ من الثرى الى الثريا

يقول النظامي : الفردوسي هو الشاعر التاريخي والعالم الطوسي هو الذي زين بالشعر وجه الكلام كما يزين بالحلى وجه العروس

ثم قال السعدي ما اجمل اقوال الفردوسي الظاهر الاصل فلنهبط شآبيب الرحمة على ترابه الطاهر

﴿ ترجمة من الشاهنامه ﴾ لعلَّ اكثر ما يهتم له الاديب معرفة رأي هذا الرجل العظيم في الحياة وها هي ترجمة بعض كلماته الحكمية والاخلاقية التي تتضمن رأيهُ فيها ايضاً

ماذا تريد من الحياة الطويلة المدى وهي مقفلة الاسرار والغيوب فانها تريك اولاً بشهد اللذات ولا تسمعك الا ارق النغمات فتظنها قد بذلت لك كل حبها وهي لا تعبس في وجهك فأنت بها فرحٌ تبذل لها ودائع قلبك واسرار نفسك ثم تلعب معك دوراً بعد ذلك يترك قلبك دامياً هكذا هذه الحياة المنقضية فلا تبذر فيها الا بذور الخير

تعال بنا ، لا نودع هذه الحياة بسوء ، ولنكن مجدين في ان ننال منها يد الخير ، لاشيء من الخير والشر يبقى ابدياً ، فاجعل بنا ان يكون الخير هو الذكرى بعدنا ، ان كنز الدنانير وقصور الذهب لن تكون لك بنافعة ولكن الكلام هو الذكرى الباقية فلا تظنن الكلام امراً هيناً

ان افريدون فرخ ما كان ملكاً ولا كان مخلوقاً من مسك وعنبر
ولكن بالعدل والجود وجد هذه الذكرى فكن جواداً عادلاً تكون انت افريدون

***

اني أحب من الحياة زاوية اجد واجتهد فيها لجمع زادي لا تؤذني غلة تحير الحية الى قراها
فان لها روحاً والروح حلو لذيذ انه لحجري القلب اسوده من تكون علة منه في ضيق

***

أيتها الحياة كلك وهم وانتفاخ لا يكون العاقل بافعالك طروباً اذا نظرت الى افعالك
لا أجد فيها الا خيالاً وما احسن الذي يجمع الذكر الجميل فيك اثراً سواء أعبداً كان أو ملكاً

***

لا تركن الى هذه الحياة ولا تأمن بسرائرك لها فانها في كل حين طرازاً من اللعب جديداً
ترفع واحداً من مجرى الامتلاك الى مسرى القبر وتخفض الآخر من السعة الى الهاوية

ان الحياة عبرة وحكمة فلماذا يكون نصيبك فيها الغفلة لقد اكثرت تشاغلك بالحياة وحرصك عليها
حتى مضى اصحابك عنك وبقيت وحدك في تشاغلك

***

انظر يميناً ويساراً ولا أعرف اول الدهر من آخره هذا يعمل سوءاً فتأتيه الحياة عفواً ذلولاً
وآخر يعمل الخير محضاً فلا يلقى منها الا كدراً لا تؤذ روحاً ولا تغضب منك قلباً
فان هذا الدهر ليس ابدياً كما انك ليس صالحاً كان كذلك وسيمضي هكذا
هكذا يصنع هذا الفلك الهرم يأخذ من الرضيع ثدي أمه

[يتلو مرتضى الحسيني الفاضلي الايراني] [البقية في باب الاخبار العلمية]